مجلة الرائد

العدد : ٢٣٥ الموافق في محرم ١٤٢٣ هجري ٢٠٠٢/٤ ميلادي

عبر من الماضي: عن كتاب « مقدمة ابن خلدون » – الفصل التاسع عشر –١–	الكاتب : د.أحمد المرايات

وسبب ذلك أن المذلة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدتها ، فإن انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها فما رَئِمُوا للمذلة حتى عجزوا عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزاً عن المقاومة والمطالبة ، واعتبر ذلك في بني إسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام إلى ملك الشام وأخبرهم بأن اللّه قد كتب لهم مُلكها ، كيف عجزوا عن ذلك وقالوا إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، أي يخرجهم اللّه تعالى منها بضرب من قدرته غير عصبيتنا وتكون من معجزتك يا موسى ، ولما عزم عليهم لجوا وارتكبوا العصيان وقالوا له اذهب أنت وربك فقاتلا ، وما ذلك إلا لِما أنسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الآية وما يُؤْثر في تفسيرها ، وذلك بما حصل فيهم من خُلُق الانقياد وما رئموا من الذل للقُبْط أحقاباً حتى ذهبت العصيبة منهم جملة ، مع أنهم لم يؤمنوا حق الإيمان بما أخبرهم به موسى من أن الشام لهم وأن العمالقة الذين كانوا بأريحا فريستهم بحكم من اللّه قدَّره لهم ، فأقْصَروا عن ذلك وعجزوا تعويلاً على ما في أنفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خلق المذلة ، وطعنوا فيما أخبرهم به نبيهم من ذلك وما أمرهم به ، فعاقبهم اللّه بالتيه وهو أنهم تاهوا في قَفْرٍ من الأرض ما بين الشام ومصر أربعين سنة ؛ لم يأووا فيها العمران ، ولا نزلوا مصراً ، ولا خالطوا بشراً كما قصه القرآن ، لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم لعجزهم عن مقاومتهم ، كما زعموه ويظهر من مساق الآية ومفمومها أن حكمة ذلك التيه مقصودة ، وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتخلقوا به وأفسدوا من عصبيتهم ، حتى نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ولا يُسام بالمذلة ، فنشأت بذلك عصبية أخرى اقْتدَروا بها على المطالبة والتغلب ، ويظهر من ذلك أن الأربعين سنة أقل ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر ، سبحان الحكيم العليم ، وفي هذا أوضح دليل على شأن العصبية وأنها هي التي تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة ، وأن من فقدها عجز عن جميع ذلك كله ، ويُلحَق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيل شأن المغارم والضرائب ، فإن القبيل الغارمين ما أعطوا اليد من ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه لأن في المغارم والضرائب ضيماً ومذلة لا تحتملها النفوس الأبية ، إلا إذا استهونته عن القتل والتلف ، وأن عصبيتهم حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية ، ومن كانت عصبيته لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة والمطالبة ، وقد حصل له الانقياد للذل والمذلة كما قدمناه ؟ .

* عن كتاب « مقدمة ابن خلدون » - الفصل التاسع عشر